النصر

لشاعر الهند رابندرانات طاغور

بقلم الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

كان « شيكار » شاعر الملك « ناران » شاعرا مجيدا ذا عبقرية قوية ، فإذا ألقى إحدى مقطوعاته الشعرية ، انبعثت نغماته الساحرة من حنجرته الرنانة القوية ، متصاعدة إلى شرفات البهو الملكى الفسيح ، فيسرى سحرها مخترقا الستائر ، فتطرب له السامعات هنالك . كان هناك خلف الستائر حيث يصل صوته القوى إلى ذلك المكان الذى لا يقدر على الوصول إليه أو الدنو منه أحد ، حيث كان يتألق خلف تلك السجف الحريرية الخفيفة شخص الأميرة « أجيتا » ذلك الكوكب اللماع المهيمن على مصير الشاعر والمسيطر على عواطفه . وكم كان الشاعر يتمنى أن يراها ثم يفارق الحياة . وكثيرا ما تخيل طيفها يتحرك خلف الستائر ولكن عندما يعود إلى نفسه يرى أنه يسبح فى واد من الخيال . يوم النصر الأكبر عنده ليس هو إعجاب الملك أو الناس بشعره ، وإنما هو سماعه صوت الأميرة

كان كثيرا ما يتخيل عالم الأميرة إذا سمع صوت خشخشة من بعيد فيسبح فى خيال جميل ويحلم بسحر عينيها وقسامة وجهها ورشاقة قوامها ... كان قد صنع لها فى خياله تمثالا يفوق تمثال فينوس إلهة الجمال . وكان يتمثل فى خياله الخصب منظر قدميها الصغيرتين الرقيقتين ، يتمثلهما تسيران على الفراش ، فيتمنى أن يسيرا على قلبه . وكم تمثل له أن يضع خلاخلها الرنانة ذات الصوت العذب ، على مذبح قلبه حيث يصوغ ألحانه الشجية وأنغامه العذبة ، على أنغامها الساحرة الجميلة وهى ترن فى قدميها

إن (شيكار) كان يؤمن بشخصية ذلك الطيف الذى يتحرك خلف الستائر . طيف ذلك المخلوق الذى يطرب لسماع أشعاره والذى يحس الشاعر أن حركاته ورنات خلاخله تغنى على وقع دقات قلبه ..

كان للأميرة وصيفة تدعى «ماناجارى» تمر كل يوم على منزل الشاعر فى طريقها إلى الحديقة ، وعند عودتها يكون الطريق قد أصبح خلوا من الناس بعد أن يسدل الليل أستاره على الدينة ، تدخل حجرة الشاعر فى جرأة وشجاعة ، ثم تجلس على

طرف البساط وتأخذ فى الحديث معه ، ذلك الحديث الذى تبذل جهدا كبيرا فى أن يكون على هوى الشاعر ورغبته ، كما كانت تحاول أن تكون لطيفة جميلة ، فتبذل عناية فائقة فى اختيار لون قناعها ، وكذلك فى طريقة رشق الزهرة فى شعرها ، وكانت تتعمد أن يراها الناس عند دخولها إلى حجرة الشاعر ، كما أن الشاعر بدوره لم يحاول إخفاء هذه المقابلات عن الناس ، بل كان يصرح ، أنها مصدر سرور عظيم له

* * *

كان شعر (شيكار) ينال إعجاب الناس جميعا من أقل إنسان فى المملكة إلى الملك نفسه ، لأنه كان يمزج الحقائق بالخيال فى شعره فكنت تسمع شعره يتردد على شفاه الجميع ويتغنى به الجميع . فإذا حف النسيم بالشجر وأحدث صوتا ضعيفا هينا ، أو إذا ظهر القمر مضيئا متلألئا ، سمعت أنغام الشاعر تنبعث من كل مكان فى طول البلاد وعرضها من مختلف الناس وعلى جميع الألسنة ، فتسمعهم يغنون فى القوارب فى الأنهار وفى الشرفات فى القصور والطرقات ، بل يخيل لك أن الأشجار والحيطان وغيرها تتغنى كلها بهذا الشعر الجميل الذى يخرج من شغاف القلوب

ومرت الأيام فى سعادة وغبطة ، الشاعر ينظم شعره ويتغنى به ، والملك يقبل على سماعه بكل قلبه ، والناس يهتفون للشاعر محيين مشجعين ، و (مانا جارى) الوصيفة توافيه كل ليلة فى حجرته عند عودتها من الحديقة ، والشاعر يعيش سعيدا قانعا بالطيف الذى يتحرك خلف السجف فى الشرفة ويطرب للنغمات التى ترسلها الخلاخل الذهبية الصغيرة وكأنها أجراس تدق داخل قلبه .

* * *

بينما الحياة تسير على هذا المنوال ، إذ ظهر شاعر جديد ، تحدى من لقيه فى طريقه من كبار الشعراء وهزمهم وتغلب عليهم . وأخيرا استطاع أن يصل إلى قصر الملك (ناران) . فلما مثل بين يديه أجاد فى مدحه . فرحب به الملك وأكرمه أعظم إكرام ؛ لأن مدحه صادف هوى فى نفس الملك . ولما عرف (بندارك) أنه تقرب إلى قلب الملك قال : إنى أطلب يا مولاى ، مناولة أكبر الشعراء وأعظمهم ؛ فسرعان ما اتجه تفكير الملك إلى شاعره العظيم (شيكار)

ولم يكن (شيكار) قد خاض من قبل غمار المناولات ، فهو لا يعرف كيف تقوم الحرب بين الشعراء ولا كيف يستعرأوارها . فلما أعلمه الملك برغبة (بندارك) الشاعر الجديد ؛ بات ولم يغمض له جفن فى تلك الليلة وقد تمثل له الشاعر الجديد المنافس

بقوامه الضخم وأنفه الأقنى ورأسه المرتفع فى أنفة وخيلاء ، تمثل له فى ليلته هذه وهو يصول ويجول فأقلق راحته وأقض مضجعه

ولما أصبح الصباح توجه (شيكار) إلى الميدان ، فرآه مكتظا بالجماهير ، ورأى غريمه يجلس منتصبا فى اعتداد وقوة ، فخفق قلبه بشدة . ولكنه تقدم من غريمه وحياه بابتسامة رقيقة وانحناءة خفيفة فى احترام ووقار . فرد (بندارك) هذه التحية بإيماءة بسيطة من رأسه فى غير اكتراث ثم دار برأسه نحو أنصاره وابتسم لهم ابتسامة ذات معنى

ورفع (شيكار) بصره نحو الشرفة العالية التى تتدلى عليها الستائر فخفق قلبه وحيا محبوبته فى نفسه قائلا : إذا انتصرت اليوم فى هذه المعركة فسوف يمجد اسمك

* * *

وظهر الملك مقبلا فى ثيابه البيضاء الواسعة ، فأشار أحد القائمين بالأمر ، فدقت الطبول ووقفت الجماهير المحتشدة تدعو للملك بالنصر وطول العمر . حتى إذا وصل إلى عرشه استوى عليه ، وبعد برهة قصيرة ، هب « بندارك » قائما فساد السكون فى القاعة الفسيحة وأصبح الناس وكأن على رءوسهم الطير . ثم أخذ يرسل مديحه للملك بصوت كأنه الرعد ، وقد انتفخت أوداجه وارتفع رأسه عاليا وتمدد صدره العريض الممتلئ : وكانت كلماته تهدر كأنها الأمواج الصاخبة ، فبدأت تؤثر فى نفوس الجماهير المستمعة ، وسرعان ما أخذت هذه الجماهير بالمهارة الفائقة والمعانى البديعة المختلفة التى نظمها فى اسم الملك (ناران) . ومما زاد فى دهشتها قدرته على تضمين أبياته كل حرف من حروف اسم الملك بطرق متعددة ، ولم يقتصر الإعجاب على الجماهير بل إنه حاز رضاء الأساتذة المثقفين الذين جاءوا من بلاد بعيدة ، فرفعوا أيديهم محيين وهتفوا للشاعر معجبين عن إعجابهم . واتجه الملك نحو شاعره (شيكار) وألقى عليه نظرة تساؤل ، فأجابه (شيكار) بأن رفع إليه عينيه المفعمتين بالألم المرير واليأس القاتل . ثم وقف شاحب الوجه زائغ البصر وقد استولى عليه الخجل الشديد يخجل العذارى . وتهامس الناس ، أين هذا القوام الهزيل من ذلك العملاق الضخم ؟ وبدأ (شيكار) يتكلم وهو مطرق الرأس خافت الصوت ، حتى أن كلماته الأولى لم يسمعها الكثيرون . ثم أخذ يرفع رأسه فى بطء ومشقة ، وكان يرفع تبعا لذلك صوته الذى ارتفع حلوا جليا نحو السماء كأنه شعاع من النور ، فاتجهت إليه العيون ، وبدأ يروى قصة حياة الأسرة المالكة

متمشيا معها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، وهو فى كل ذلك يشيد بعظمتها الخالدة وكرمها الزائد وبطولتها الفذة إلى أن قال :

مولاى ! قد أكون هرمت فى صوغ الكلام ، ولكنى منتصر بحق نشيدكم الكريم . ثم عاد إلى مكانه وجلس وهو يهتز كأنه القصبة فى مهب الريح

وتأثر السامعون لهذا القول واغرورقت عيونهم بالدموع وتصايحوا معجبين بهذا الوفاء العظيم حتى اهتزت جدران القاعة الحجرية

عند ذلك انتصب (بدارك) قائما فى عنف وقوة ، منجدا هذا الشعور الذى أظهره الجمهور وألقى السؤال الآتى على مسامع الحاضرين :

— هل هناك ماهو أعظم من الكلمات ؟

فساد السكون أنحاء القاعة ، ولما لم يجد أحدا قد تحرك حتى الشاعر (شيكار) ابتسم ابتسامة خبيثة ، ثم أخذ يثبت فى براعة وفصاحة (أن فى البدء كانت الكلمة وأن الكلمة كانت عند الله ...) وأخذ يؤيد أقواله بآيات كثيرة من الكتب المقدسة ويشيد صرحا عاليا لقيمة الكلمة : بل إنه جعلها أعلى وأعظم من كل مافى السماء وكل ماعلى وجه الأرض

ثم وجه السؤال مرة ثانية بصوته الجهورى المرتفع قائلا : هل هناك ماهو أعظم من الكلمات ؟

وحار بصره فيما حوله فى تعاظم وكبرياء فلم يجرؤ أحد على أن ينجداه ، فجلس فى مكانه فى بطء وكأنه أسد أحرز على فريسته ثم أتى عليها فى أكلة واحدة وهتف له الحاضرون فى إعجاب عظيم ولكن الملك ظل صامتا ساكنا فى الدهشة

وهنا أحس الشاعر (شيكار) أنه ليس شيئا مذكورا بجانب هذا العلم الفياض والحجة القوية والمقدرة الفائقة . ثم علا الملك خمسة وتبعه الحاضرون

* * *

ولما كان اليوم التالى عاد الشاعران إلى الميدان وارتجت القاعة بالناس وأخذ الملك مكانه فى صدرها ، ثم أومأ إلى شاعره (شيكار) فقام وتوسط القاعة وأخذ يتغنى بذلك اليوم الذى سمع الناس فيه أعذب موسيقى النظام مقبلة مع هواء غاية «فرانداا» الهادئة ولم يستطع أحد رؤية الموسيقى ولا مصدر الموسيقى ودهشت الراعيات اللاتى كن فى الغابة واستولى على المارين نوع من الخوف لأنها كانت تبدو لهم كأنها تنبعث من كل شىء من الجبال والحقول والوديان ومن الطرق الظليلة ومن الخضرة الزاهية

والحشائش النامية . ونسى الناس أنفسهم فعاشوا فى هذا الجو ، ولم تستطع النسوة إدراك كنهها ، وامتلأت نفوسهن رغبات ولكنهن عجزن عن التعبير عنها فاغرورقت عيونهن بالدموع اللؤلؤية ، وتمنين لو أن حياتهن انتهت فى هذه اللحظة على عتبة الأبدية

وغاب الشاعر عن نفسه ونسى سامعيه فما نسى أنه يناول خصما له عنيدا ، فقد كان فى هذه اللحظة يعيش وحيدا مع أفكاره التى كانت تتزاحم وتتضارب فى ذهنه فتحدث حوله حفيفا كحفيف ذلك الثوب الذى تخفيه تلك الستائر المسدلة على الشرفة ثم عنى (أغنية الناى) وكان يتمثل فى مخيلته صورة طيف وأصوات ضئيلة تهمس من بعيد

ولما انتهى من إنشاده عاد إلى مجلسه ، وقد استولى على المكان سكون رهيب ، كما استولى على السامعين سرور عميق مصدره ذلك الشعور المبهم الذى تولاهم ، فلم يستطيعوا تحديده أو معرفة كنهه ، وقد استغرقوا فى هذا السرور حتى أنهم نسوا أن يقرظوا الشاعر الذى خلب ألبابهم ولم ينتبه الناس لأنفسهم إلا عندما انتصب ذلك العملاق « بندارك » واقفا وتقدم أمام عرش الملك وطلب من (شيكار) أن يذكر اسم ذلك المحب واسم تلك الحبيبة اللذين جعلهما موضع قصيدته . ثم أدار بصره نحو أصدقائه وأنصاره وابتسم لهم ، وقبل أن يترك مكانه طلب من غريمه فى تحد ، أن يذكر هذين الاسمين — وساد المكان سكون عميق ، واتجه الناس بأنظارهم نحو (شيكار) ولما لم يجدوه قد تحرك ، هب أنصار (بندارك) يمدحونه أعظم المدح ، فتبعهم الباقون الذين خدعهم ما رأوا من هزيمة (شيكار) ونصر (بندارك) فإذا كان الأول صاحب حق فإن الثانى قوى التفكير ، سريع البديهة ، وقد خيل للشعب أن (شيكار) بالنسبة (لبندارك) ماهو إلا طفل صغير لايستحق إلا اللعب ، أين (شيكار) من ذلك المارد الجبار الذى يتغلب على كل عقبة تعترض طريقه بقوة تفكيره وغزارة علمه ، كما خيل لهم أن أشعار شاعرهم ماهى إلا كلام رخيص وفى غاية السهولة فليست عميقة التفكير ولا هى جديدة فى شىء ، كما لم تكن تحتوى على شىء من العلم أو الفلسفة

ودهش الملك ونظر إلى شاعره نظرات التيقظ والحنق عله يستطيع أن يبذل جهده ليرد على (بندارك) تحديه فقد كان الملك يحب شاعره ويصطفيه ، ولكن (شيكار) لم يفعل شيئا ولم يتحرك من مكانه ، فاغتاظ الملك وهبط من عرشه والغضب يملأ عينيه

وكل جارحة فيه ، وأخذ قلادته اللؤلؤية وزين بها جيد (بنداريك) وعند ذلك دوى المكان بالتصفيق الذى لا حد له

فى هذه اللحظة الرهيبة من حياة الشاعر (شيكار) طرق سمعه صوت ضئيل كالخلخال ذهبي رنان وخفيف كرداء حريرى يتحرك ، فطفرت من عينه دمعة ساخنة ، لأنه لن يسمع هذا الصوت مرة أخرى فقد حرم الحضور إلى هذا المكان إلى الأبد

* * *

وافق الشاعر من غيبوبته فرأى المكان خاليا ، فتحامل على نفسه ونهض من مقعده وجر جر قدميه جرا . كانت هذه الليلة سوداء حالكة الظلام ضل فيها الشاعر طريقه إلى بيته . فلما وصله بعد طول عناء ، أخذ يجمع مخطوطاته وأشعاره الأولى التى كاد ينسى ما خطه فيها ، وأخذ يعبث بصفحاتها ويقرأ ما كتب فيها ، فخيل له أنها ألعاب صبيانية لا قيمة لها وأنها نافهة عديمة المعنى لا تستحق الرقاع التى كتبت عليها

وكلما فرغ من قراءة صحيفة مزقها وألقى بها فى إناء أمامه يحوى نارا ملتهبة ويقول : إليك أيتها النار يا فتاتى العزيزة ، إليك يا من كنت تشتعلين فى فؤادى طيلة هذه الأعوام الخالية . إليك أيتها النار يا من لم تصهرى معدنى ، فلو أنى كنت قطعة من الذهب لخرجت من أتونك بعد هذه الحياة الطويلة ، أصفى معدنا وأكثر لمعانا . ولكنى كنت جيفة نتنة طالما وطئتها الأقدام فلما ألقيت فيك لم يبق فيها إلا حفنة من رماد أذرته الرياح عند أول هبوبها

وعندما انتهى من حرق أوراقه ، فتح نوافذ غرفته على مصاريعها وأحضر ما عنده من شموع وأوقدها كلها ، ثم نثر الورد والأزهار البيضاء على فراشه وبعد أن انتهى من كل ذلك خلط عصارة بعض النباتات السامة ببعض العسل ، وتجرع المزيج فى هدوء كأنه يتناول كأسا من الخمر المعتقة . ثم تمدد على فراشه فى سكون وراحة ، ولكنه ما كاد يضع رأسه على مخدته حتى سمع صوتا ظنه من أثر السم الذى تجرعه ، سمع رنين خلاخل ذهبية فى خارج منزله ، تحت نافذته . وهب النسيم يحمل إلى أنفه رائحة زكية طالما استنشقها فى أيامه الماضية ، فتمتم فى وهن وضعف هل يعقل أن تكون هى ؟ « ربما تكون قد أخذتها الشفقة بحادثها فأتت إليه فى النهاية لتراه ولتشبع منها بصره قبل أن يغمض إلى الأبد » وما كاد يتم كلامه حتى سمع صوتا رقيقا على باب غرفته يقول :

ها أنا ذى جئت لأقف إلى جوارك

يا شاعرى الحبيب